الفصل الرابع عشر

بشير

كان بشير قلق النفس عندما جلس في المقهى يفكر بالمقدم حميد الذي أصبح وزيرا وقلبه يغلي بمزيج من الحسد والنقمة وهمس لنفسه:

- انني مجنون.. كبلت نفسي بقيود حزبية تميت كل طمـوح عنـد الإنسان.

ولم يلبث أن دخل أحمد فسلم وجلس فابتدره بشير بقوله:

- ما رأيك بالوزراء الجدد؟

- ألا يكفي أن المقدم حميد وصل؟ قال لي "انهم يستشفّون رأيي في إسناد وزارة الي فلم أصدقه قلت لنفسي "العسكريون أصبحوا طمـوحين جدا. كل واحد فيهم أصبح يطمح الى وزارة في دولة البكابشة هذه"

- باعتقادي أنه كان يتعاون مع المصريين قبل الوحدة.. هل تتـذكر يوم قال "حكمنا الفرنسيون خمسا وعشرين عاما، فليحكمنـا المـصريون خمسا وعشرين أخرى.

- مهما كان الأمر فان الوزارة لاتشرف في مثل هذه الظروف التي بلغ استياء الناس فيها مبلغه.

- لاشك أنها ترضية لطبقة الفلاحين.

- وماذا يستفيد الفلاحون من استوزار المقدم حميد؟.. انه نظام ليس بوسع فرد أن يغير منه شيئا.. نظام دكتاتوري ليس الوزراء فيه سـوى آلات منفذة.. نكون حمقى اذا ظننا بأن فردا مهما كان تقدميا يمكنـه أن يتصرف بما يحلو له خارجا عن حدود النظام الذي يرسـم لـه دائـرة حركته.. هذا اذا كان ذا شخصية قوية فكيف بالمقدم حميد؟.. ما أجملـه! ياعيني عليه! ليس هناك من هو أجمل منه، ان الإنـسان لايـستطيع أن

يتصوره في هذا المركز، بجهله وجبنه وعماوة قلبه.. لم يكـن يـستطيع قيادة سرية فكيف الآن بوزارة؟ في حـرب فلـسطين ذهبـت متطوعـا وتزاملنا أنا والمقدم حميد.. كان حينذاك ملازما. وذات مساء كنـا فـي العراء فقلت له مازحا وأنا أشير الى نجمة في الـسماء.."هـذه طـائرة يهودية!" صدق وتلون وجهه وراح يختفي وراء حجر لايحميه، ثم خلف شجيرة ثم يتمدد على الأرض ومرت بضعة دقائق وهو في حالة هستيرية مضحكة، وانفجرت ضاحكا فانتبه الى أن الأمر مزاح ونظر الى السماء مرة أخرى وصاح مغضبا "يلعن...هذه نجمة" فقلت له "مم تخـاف؟ لـو فرضنا أنها طائرة يهودية، فقد تقذف كيس بارود لايقتلك الا اذا وقع فوق رأسك، وقد يلقى على بعد كيلومتر، وقد تمـر الطـائرة دون أن تقـذف شيئا.. ألا ترى أن احتمال الخطر بعيد جدا؟ هذا الرجل بالرغم من جبنه، وبالرغم أنه لم يغبر حذاءه يوما في معركة حقيقية اذ كان طوال حياتـه العسكرية يحشر نفسه في الأعمال النظيفة البعيدة عن الخطر، هذا الرجل كان يأمل أن يصبح رئيسا للأركان.. ألا ترى أنهم يعرفون كيف ينتقون؟ جعلوه وزيرا!

- ويجلس صامتا أكثر الوقت!

- فان تحدث فليتذمر من سوء الوضع. لم يكن الأمر بالنـسبة اليـه وطنية وإحساسا بالمسؤولية، مجرد تململ واسـتياء لأنـه لـم يـصل كالآخرين.. كان إذن يطمح الى وزارة.. كان وهو يجلس بيننا يحوك في صدره أن يصبح وزيرا.. تصور! يالللسخف والغباء! وينال مأربه.. ولكن سيكون فيه حتفه لو تغيرت الأمور.. سيموت جوعا ان لم يمـض بقيـة حياته في سجن المزة.. سيعود الى قريته شريدا منفيا لايجد لقمة الخبز.. الأمر لن يدوم أبدا على هذه الحال..

- مثل هذا الرجل لايعود بعد الوزارة الى قريته الاّ وقـد اشـترى أراضيها كلها من فلاحيها لتصبح ملكه الخاص.. ستقول بشير تنبأ بهذا. نحن وحدنا من سنلقى الهوان.

- إنتصار الباطل يوما لايعني انتصاره الى الأبد، وانهزام الحقيقـة مرة لايعني انهزامها الى الأبد.

- قد يطول أمد الباطل حتى يهلك الحرث والنسل.. من يضمن زوال هذا العهد سـريعا؟ والرفـاق يأخـذون علـي أننـي أريـد أن أشـعر بالاطمئنان..لماذا؟ الإنسان لايستطيع النضال والخوف من أن يفقد عملـه ويتعس عائلته، يؤرق مضجعه.. أريد أن أتحرر من الحاجة، مـن هـذا الخوف ثم أناضل.. اعتقلت زمن الشيشكلي فجاع أولادي.. إنهم شـباب اليوم بحاجة الى كل شيء، ولست أعيش في عهد اشتراكي حتى يطمـئن بالي عليهم.. انني مسؤول عن مستقبلهم وعن سعادتهم، وراتبي لايكفيهم، فكيف اذا فقدت هذا الراتب في يوم من الأيام؟ ماذا يأخذون علـي اذن؟ انني أسمي أقوالهم جمودا عقائديا.. أريد أن أقوم بهذا المشروع الزراعي على أية حال وليقولوا عني ما يقولون.

- يابشير دع هذا لغيرك.. لمغامر، لتاجر.. وفرت المبلغ الذي معك بإحراق أعصابك خمسا وعشرين عاما في الوظيفة فلا تـضيعه هبـاء. أنت أدرى الناس بالمنافسة الرأسمالية الوحشية. لامكان فيهـا للرأسـمال الصغير.. لانجاح فيها الاّ بالإستغلال. وحتى لو ربحت فلا يليق بإنـسان أن يكون مناضلا ومستغلا في آن واحد..

- أعلم هذا.. ولكن ماذا أفعل اذا كنت أعيش في مجتمع له قوانينـه الخاصة به، وقد يكون فيها استغلال.. فهل أتحلى وحدي بفضيلة القناعة؟

- يابشير ان واجبنا أن نغير هذا المجتمع، لا أن نرضـخ لقوانينـه ونقف في صف المستغلين.

- سيدي لهم علي عهد يوم تنتصر الإشتراكية في هذا البلد أن أقـدم برحابة صدر ما جنيته من عملي، ويبقى لي بعد تربية أولادي وتعليمهم.

- ان كل ما تقوله لايعني سوى شيء واحد.. هو أنك تريد أن تفصم ما بينك وبيننا.. وأنك تريد أن تتحرر وتغتني، ولا تثق بالتالي بانتـصار قضيتنا.

- أبدا.. فكرت في الأمر طويلا. هذا المشروع سيزيد فـي الثـروة الوطنية، وسيجد بعض العمال الزراعيين العمل فيه.. وسأتحرر أنا مـن الحاجة فأتفرغ للنضال.

- لاتخدع نفسك يابشير بهذا الكلام. لست أنت من لايدرك مضمون ما يقول. ان ما تقنع به نفسك لايقنع أحدا منا. ستتحول في حال نجاحـك الى مستغل، وتصبح بحكم مـصلحتك عـدوا للطبقـة العاملـة وعـدوا للإشتراكية. فأين ما تدعيه حينذاك من نضال؟ ان المناضل فـي سـبيل انتصار الثورة لايغتني من عرق الذين يدافع عن مصلحتهم، وكيف يمكن لنا وأنت تأخذ فائض القيمة من العمال أن نقبلك مناضلا في صفوفنا؟

- انك أيضا لاتفهمني يا أحمد!.

وصمت برهة على مضض ثم أردف:

- لو كان لديك عائلة كبيرة كعائلتي لأدركت ما أقول.

ولم يلبث أن قدم إحسان فكف بشير عن الحديث، ووجه اهتمامه الى إحسان الذي بدأ حديثه ضاحكا:

- البارحة كنت عند المقدم حميد قبل أن تصدر التشكيلات الجديدة.. أتعرفون ماذا فعل؟ أحضر شمعة وأشعلها، وغرز فيها دبوسا ثـم قـرأ

سورة الكرسي، وبعدها استخارة ما، ثم أخذ يتمتم "بطلع، ما بطلع" حتـى سقط الدبوس.. وكانت النتيجة أنه طلع.

وضحك أحمد وقال:

-يريد أن يوهمك أنه لايدري شيئا عن التشكيلات كأنما هبطت عليه من السماء. سخيف ولكنه ثعلب.. كأنما لايعرفون عنه أنه طموح يشتعل برغبة مسعورة للوصول بأي ثمن كان. هو أخبرني أنهم يتصلون به، ولم يخبرني بأنه وافق. يعرفون من ينتقون ومن ينسجم مع مخططهم.

قال بشير متحديا:

- اننا نخطئ في الحكم على الناس عندما نفترض أن هـذا الحكـم عميل، وكل من تعاون معه عميل خائن.. قد يكون حكمـا لـه مـساوئ كثيرة ولكنه نوع من الإحتكار الـوطني، ولـيس كتلـك الإحتكـارات الكوزموبوليتية الخائنة.. يجب أن نقوم الأمور بنظرة علمية ولا تجرفنـا العاطفة.. ان الإحتكارات ليست كلها سواء.

وابتسم أحمد ساخرا:

- ان هذا خطأ فاحش تقعون فيه أنـت وبعـض الرفـاق.. هنـاك برجوازية وطنية وليس هناك احتكار وطنـي. ان الإحتكـار لايـصبح احتكارا الا اذا صدر أمواله الى الخارج واسـتثمرها. وعنـدما يـصدر أمواله يقع تحت قانون الإحتكار العالمي ويـشاركه فـي سـلب ونهـب الشعوب الأخرى، ويفتح وطنه بالذات لنهب المستعمر الشريك لـه فـي الجملة الإحتكارية.. قد تدعو الشركة الخماسية في سـوريا برجوازيـة وطنية، ولكن هل تدعو احتكار عبود في مـصر احتكـارا وطنيـا؟ ان وضعت الشركة الخماسية عشرة ملايين جنيه، يضع عبود أمامها مـائتي مليون جنيه. ان مجال مصر لايكفيه.. يريد أن يصدر أمواله ويفتح لـه

فروعا في الخارج. انه حينذاك يدعى احتكارا. فهل تصمت له احتكارات الدول القوية وشبكتها الإحتكارية العالمية؟ بـدأ الـصراع اذن وبـدأت المساومة. يقول له الإحتكار الأميركي "أصمت عنك ان دخلنا شـركاء، أصمت ان شاركتك الربح، وبما أنني الأقوى فعليك أن ترضخ لشروطي. انني أتغاضى عن كل ما تفعل ان يسرت لـي مـصالحي، والاّ فـانني أحطمك وأبحث عن بديل لك. ويرضخ الإحتكار المصري، انه لايستطيع الاّ أن يرضى بالشروط.. انه أصبح خائنا منذ أن أصبح احتكارا، خائنـا لشعبه، خائنا لشعوب الغير.. ان هذا ما يفسر تسرب الرساميل الأميركية والألمانية الغربية والايطالية الى سوريا بعد الوحدة، بعد أن كانت أبيـة عليها.. يفسر معنى القومية العربية.. يفسر معنى الزحف المقدس.. يفسر معنى الديكتاتورية.. يفسر معنى مقاومة الـديموقراطيين وزجهـم فـي السجون..

قبل أن يغادر أحمد التقى بإحسان في ركنهما بالمقهى ولم يكن بشير هناك وتبادل الإثنان نظرة ذات معنى وقال إحسان مبتسما بمرارة:

- رأيته برفقة حميد بضعة مرات، هما راكبان وأنـا مترجـل، ولا يتوقف أحدهما للسلام علي.

- أصبح يتهرب منا.

- عجبا لهذا الإنسان! هل قادته كل ثقافتـه ومعرفتـه لمثـل هـذا المصير؟

- إنحرف منذ وضع لنفسه هذا الشعار الخطر "أريد أن أتحرر مـن الحاجة ثم أناضل" فشل مشروعه الزراعي.. وقع مـع نـصاب.. كـم حذرته! خسر كل ما وفره من وظيفته، وماورثته زوجته من أهلها وغرق بالديون.

- قال لي بنفسه ان الإنسان يتحول الى وحش في الصراع الرأسمالي بالرغم عنه.. يضطر لاستغلال جهود فلاحيه أو عماله الى أبعـد مـدى حتى لايصاب بالخراب.

- فشل لأنه لم يستطع أن يتحرر من ضميره.. ولم تستطع إمكانياته الضئيلة أن تقف أمام العجلة الرهيبة في نظام شرير بلغ به حكـم الفـرد ذروة الشر.. لقد أصاب الخراب كل من زرع القطن فـي سـوريا لأن مصر لاتريد له أن يجد سوقه الطبيعي في العالم.

- أتعلم أن بشير هو أول من فـتح أمـام عينـي روعـة الحيـاة الاشتراكية؟ لم أجد رجلا مثله في توقد الذهن وصفاء الفكر.. كيف يمكن له أن يشارك في مثل هذه المهزلة؟ أيخدع الإنسان نفسه؟ أيـسخر مـن ايمانه وقناعته؟

- انه يأمل كالآخرين بوزارة فدراسته كانت في مصر. وأخي أيضا يأمل بوزارة.. لقد أعمت الوزارات أعين الناس في هـذا العهـد.. وأي وزراء يريدهم هذا الحكم!. دمى للزينة وحنو الرأس والتصفيق كـأنهم روبوتات يابانية. ثم قبض الرواتب الضخمة بثمن نهب سوريا وتجويـع أهلها وملاحقة التقدميين.. ولكن سـيأتي يـومهم.. الـشعب الـسوري يحاسب.. نصف مليون انسان خرجوا الـى الـشوارع لإسـقاط حكـم الشيشكلي.. لن يتاجروا بعذاب الناس ويفلتوا من العقـاب.. لايجـب أن يترك انتهازي بعد اليوم يرفع رأسه.. يجب أن تصادر أمواله ويلقى بـه الى الشارع، يأكله القمل ويبصق عليه الناس.

- من المحزن أن الإنتهازية تنتشر في بلادنا انتشار النار في الهشيم كأنما هي القاعدة وغيرها الشواذ.

- خربت الإنتهازية كل عاطفة شريفة في الناس.. انني أرى حمتها يقطر سمها حتى بين التقدميين.. لعلك سمعت بالمشادة التي وقعت بينـي وبين صفا! لم أعد أحتمل.. ان للإنسان حدا يصمت معه ثم ينفجر..

-- سمعت ولكنني حاذرت أن أسألك..

- ياإحسان انني أشعر بتيار غريب يقتحم صفوفنا.. لست أدري من يقود هذا التيار.. أشياء كثيرة تحدث لايمكن أن يسكت عنهـا الإنـسان الشريف.. انني أتساءل كيف يصل شـخص مثـل صـفا الـى اللجنـة المركزية؟ أندعو الناس الى الديموقراطية وتكون القيادة ديكتاتورية؟

- أصحيح ما سمعته أنك قلت له يجب أن تطرد من سـاحة التقـدم وتحمل راية العار؟

- وقلت له أكثر من هذا.. انني لاأحترمه.. لو تجسدت الإنتهازيـة والأنانية والنفاق والتزوير لكانت صفا.. انه لايتقن الاّ غلي القهـوة فـي المجالس، وتصدر الإجتماعات دون أن ينبس بحرف.. ان تحدثت بشيء مسخ أحاديثي وشوهها لا لأنه لايدركها.. لاينقصه الذكاء ليفهم ما أعنـي كأنما يجهد أن يعزلني عن القاعدة وينشر الضباب حولي.. ويساعده هذا الجو الذي نعيش فيه. ليس هناك من ديموقراطية تطرح فيهـا الأمـور تحت ضوء الشمس، وتكون القرارت بعد حوار مدروس فيعـرف مـن المخطئ ومن هو على صواب.

- ما سبب النزاع بينك وبينه؟

- ليس النزاع بيني وبينه فقط.. انه بيني وبين هـذا التيـار الـذي حدثتك عنه.. يكرهون أن يروا مثقفا حقيقيا بين صفوفهم، انهم يبعدونـه ولا يجعلونه يتقدم خطوة الى منطقة نفوذهم.. كـم كنـت أتعـذب وأنـا متناقض مع نفسي أجد لانحرافاتهم الأعذار وأبررهـا.. أمـا الآن فقـد

صحوت ولا يمكنني أن أفعل ما فعل ذلك الرفيق المسكين الذي انتقـدهم فأجاعوه وعياله عامين، حتى كتب انتقاده الذاتي يلوم نفسه ويبرؤهم مـن العيوب، ليجدوا له عملا في وكالة تاس فلا يموت من الجـوع.. اننـي أحمل شهادة معترفا بها عالميا من أفضل معاهد باريس، ولا أموت مـن الجوع كالذين يحملون شهاداتهم.. سأحارب كل ما أراه مخلا بالـشرف والتقدم حتى يتبدل هذا التيار، أو تكنس القاعدة الشريفة أفراده من ساحة التقدم.

- أنا لاأريد أن أقاطعهم في هذه الظروف الحرجة التي نعاني منها..

- في الأزمات لاترى مـسؤولا واحـدا مـنهم.. كلهـم يختفـون كالأشباح.. الى حيث النعيم في البلاد الاشتراكية. هل كان من الضروري أن يقف خالد بكداش هذا الموقف العدائي من الوحدة؟

- أنا معك. حتى لو كان على صواب فلم يكن من الحكمة تـوريط الحزب.

- أنا شخصيا خبرت تصرفاتهم المحابية، يوم انفجرت زجاجة دواء حارق في وجه عامل فأهملوا إرسـاله ليتطبـب بالمجـان فـي الـبلاد الإشتراكية. بري لساني وأنا أرجوهم بشأنه. كانت بتلة الورد الرقيقة التي جعلت كأس غيظي يفيض. اذ أن زجاجة الدواء التي أحرقت وجهه كانت من صنع اشتراكي، أمبلاج سيئ.. يقولون هذا تحامل على بلد إشـتراكي ويبعثون بإقطاعي يزن ثقله ذهبا الى البلاد الإشتراكية ليتطبب بالمجان.. وحتى لو كان في هذا تحامل ألا يشفقون عليه، يسير بين النـاس كأنـه فرنكشتاين، شاب تقدمي خدمهم بكل ما أوتي من قوة!

- تكسي، تكسي يعاملون الناس.

- ويل لهذا الشعار يرفعونه، خال من الإنـسانية، يركبونـه وعنـد مفترق طرق يذهب هو الى ناحية وهم الى أخرى.. ما الفرق بينهم وبين الفاشست؟ أبدلوا الماركسية بالمكيافيلية، والمبدأ بالتكتيك والثورة بالمكائد.

الى أين يذهب الإنسان الشريف الهارب منهم؟ اننا نعـرف الأسـتاذ بشير فهو ليس رجلا سيئا، ولكنه وجدهم لايعتمد علـيهم.. كـان يائـسا منهم.. لم يعد يشعر فرقا كبيرا بين التقدم الذي يتحدثون عنه وبين هـذا العهد الجديد.. فعندما تصبح مبادئ وشعارات التقدم جوفاء فلا نلـوم الاّ أنفسنا ان تخلى الناس عنا.

تذكر أحاديثي منذ الوحدة.. كان رأيي دائما أن الوحـدة لايجـب أن تعارض كوحدة لأنها أمنية من أمنيات الشعب، وخصوصا بـين بلـدين متحررين.. خدع الناس عن طريق أنبل عواطفهم.. ونحن الذين كنا نرى الأمور أبعد مما يراها الفرد العادي، الاّ أن علينا أن لانتـصرف بـشكل يثير حولنا الشبهات، ويعزلنا عن ضمير الشعب، ويعرض أفراد الطليعة للملاحقة.. بل يجب أن تقتصر معارضتنا على الأسلوب الذي تتطبق فيه الوحدة.. رأي أبديه وأنا مؤمن به كل الايمان. إجتهاد! ولكن صفا أثـار به الحساسيات.. قال:

- أنت تشتم اللجنة المركزية وتنتقد رئيسها، وتعمـل تخريبـا فـي الحزب..

وجن جنوني، وقلت له "رفعت نفسك كثيرا ولكن تـذكر أن الجلـد عندما يبلغ سطح الجسم، يتقشر تاركا مكانه للجلد الجديد الذي ينمو تحته.

- سأشكوك!.

- افعل! انني لست مرتزقا ولكنني صاحب مبدأ. تخليت عن عبـادة الآلهة، لا لأعبد أشخاصا، ولكن لينتصر العقل وينتصر التقدم ويتحـرر الإنسان!.